مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

المكان في روايات سحر خليفة

الدكتور حسّان الشّامي*
لاريسّا أحمد **

(تاريخ الإيداع 3 / 3 / 2014. قبل للنشر في 11 / 6 / 2014)

□ ملخّص □

حظي المكان الروائي باهتمام الروائيين في العصر الحديث ، باعتباره الرابط بين جميع عناصر الرواية ، فهو مسرح الأحداث، والمجال المادي الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتجري ضمنه كل الصراعات، وبذلك شغل المكان بأنماطه المختلفة الدراسات الحديثة، فاهتمت بعلاقة المكان بالمكونات الروائية كافة، وبخاصة الشخصية، وأثر هذه العلاقة في تشكيل المكان، ومنحه سمات ومعالم محددة ، تبعاً لمسار القضية، وحركة الواقع الفلسطيني .

وقد شكلت علاقة الشخصية بالمكان أهمية كبيرة نظراً للعلاقة التبادلية بينهما، حتى غدا المكان في بعض الروايات منطلقاً للأحداث ، وغاية لوجود الشخصيات ، وتأكيد هويتها ووجودها.

يتناول هذا البحث المكان في روايات الكاتبة سحر خليفة ، فيبين دوره في تجسيد الواقع الفلسطيني، وأهميته في حياة الشخصية الفلسطينية، كما يظهر دور الوصف في إبراز تضاريسه وأبعاده الدلالية.

الكلمات المفتاحية : المكان ، الشخصية الروائية ، التشكيل ، الوصف ، الخصوصية ، البعد الدلالي.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
** ماجستير – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

Setting in Sahar Khalife's Novels

Dr. Hassan Al-Shami*
Larissa Ahmad**

(Received 3 / 3 / 2014. Accepted 11 / 6 / 2014)

□ ABSTRACT □

The setting in novels has captured the novelists' attention in the contemporary literary world. It was considered the link between elements of the novel. It is، after all، the setting of the events، the substantial scope in which characters move and where all conflicts take place. Thus، the setting، with its different types، has preoccupied modern studies which examined the relation between the setting and the narrative elements، especially the character. Studies have preserved to reflect the relation between setting and character and the effect this relation has on forming the setting and giving it specific characteristics depending upon the case and the reality of the Palestinian movement. This relation between setting and character has acquired much importance due to the mutual relation between the two، to the extent that setting، in some novels، has become a basis for the events، a purpose for forming characters، and a conformation for their identity and existence. This research sheds light on setting in SaharKhalife's novels، its role in personifying the Palestinian reality، and studying its importance in the life of the Palestinian character، in addition to showing the role of description in projecting its indicative features and dimensions.

Key words: setting، character، formation، description، peculiarity، indicative dimensions.

***Assistant Professor- Arabic Literature Department- Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia- Syria.**
****Masters Degree- Arabic Literature Department- Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia- Syria.**

مقدمة:

شكّل المكان أهمية كبيرة في الرواية العربية، ولاسيما في الأدب الفلسطيني؛ نظراً لخصوصية هذا المكان وطبيعة الظروف التي حكمته ولاسيما بعد نكبة 1948، إذ أضحى قوةً راسخةً ضد هجمات الصهاينة . ولم تخلُ رواية فلسطينية من الصور الوحشية للمدن المدمَّرة المليئة بالأشلاء التي هدمها حقد العدو، وهذا ما نلمسه لدى الكاتبة سحر خليفة التي عنيت بالمكان الفلسطيني في رواياتها، فاكتسب دلالاتٍ مفتوحة، ومعانٍ متشعبة، عكست تمزق الفلسطيني، ومعاناته، وضياعه. وقد تمّ اختيار عدّة روايات من أعمال الكاتبة مجالاً لهذه الدراسة، وذلك وفق مقتضيات البحث.

أهمية البحث وأهدافه:

يسعى هذا البحث إلى إبراز ملامح المكان في روايات الكاتبة سحر خليفة، وأثر ذلك في تجسيد الواقع الفلسطيني داخل الأرض المحتلة، من خلال دراسته بأنواعه وأشكاله المختلفة، وأبعاده الدلالية، تبعاً للتغيرات التي تطرأ عليه.

منهجية البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفي؛ لأنه يسمح بتناول المكان بصوره المتعددة، ودراسة أبعاده المختلفة، كما أفاد من معطيات بعض الدراسات الحديثة التي تناولت تقنيات السرد الروائي؛ بغية الوقوف على أنواع المكان وتفاصيله، ودراسة علاقته بالمكونات الروائية الأخرى، وأهمية هذه العلاقة في تشكيله، ومنحه أبعاداً فنية ودلالية.

أولاً – المكان الفلسطيني وخصوصيته:

احتلّ المكان أهمية كبيرة في الرواية الفلسطينية، واكتسب خصوصية معينة، تنبع من وجود طرفين متصارعين متنازعين، يسعى كل طرف للاستحواذ عليه، وإثبات وجوده.

وقد (فرضت تجربة الاقتلاع والنفي القسري للفلسطيني عن أرضه نوعاً من الخصوصية في علاقته مع الزمان والمكان)[1] المفقودَيْن، فبات يحلم بالعودة لاستعادتهما، وبذلك اكتسبت الأرض صفة قدسية حين أصبحت جوهر القضية، وكل شيء في حياة الفلسطيني مرتبطٌ بها.

ونلمس أهمية المكان لدى سحر خليفة من خلال وعيها العميق بأبعاد القضية الفلسطينية، ومدى التحام الإنسان الفلسطيني بأرضه وتجذره فيها، حتى باتت الأرض هي الإنسان، وهذا ما عبّرت عنه على لسان "نزهة" في رواية "باب الساحة " حين تحدّت "حسام" قائلة: (يعني مين الوطن غير أنت وأنا ؟ إحنا يا هالناس؟)[2].

فالأرض هي القضية ، وهي الإنسان الذي تجذّر فيها ، فقد أضحت (تمثّل ذروة العلاقات الحميميّة للفلسطيني مع الأشياء)[3]. هذه الحميميّة تدفع من هم في الشتات والمنافي لمحاولة العودة إليها، كما فعلت بأسامة الكرمي الذي عاد من المنفى، والتحم بالأرض وامتزج بترابها ؛ لأنّه أدرك أن لا وجود للإنسان من دون الأرض:

---

[1] **وادي ، فاروق : *ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية – غسان كنفاني، إميل حبيبي ، جبرا إبراهيم جبرا*– المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دائرة الإعلام والثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، الطبعة الأولى،1981، ص56.**

[2] **خليفة، سحر : *باب الساحة* ، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الثانية ،1999، ص174.**

[3] **وادي، فاروق : *ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية*، ص55.**

(مدّ يده . تلمّس التراب الممزوج بالدم والدموع . الأرض . الدم . الشعر. وأحلام الهوى. وفي القرية تصدح الشبابة مذكّرة بأعراس لم تولَد بعد)[4].

لقد أدرك الفلسطيني الواعي في روايات سحر خليفة حجم المعركة التي يخوضها مع المحتل، وأنّ الحفاظ على الأرض لا يكون إلا بخوض هذه المعركة للحفاظ على وجوده، (فلن ينصر الله إلّا اليد المشدودة على الزناد)[5]، (هذه اليد . ملطّخة بالدم . لكنها جسر الحرية في نهر الأحزان)[6].

لقد أضحت الأرض هوية الفلسطيني الذي بات يحافظ عليها من الضياع والزوال، حتى صار باسل (أبو العز) يحفظ هويته في قلبه وعيونه:

(لا تبتئس، هويّتي معي، حملتها عمراً ودهراً، حفظوها في ملفّاتي وزنازين السجن، طبعوها فوق سواد القلب وثني العين فأغلقت الأهداب عليها، ومرّت الأيام ومزّقت النابات عظامي وظلّت مصونة. غابت عن عيون الجميع إلّا عيوني، كانت هناك . رأيت العالم فيها ومنها سيراني العالم. وبرموشي أطرد الذباب عنها، وبها أطرد الجوارح والجنّ الأزرق . ويوم يجيء فأجعلها رداءً يتّسع لكل المحرومين)[7].

هكذا أصبحت الأرض في نظر باسل هي عنوانه، وبصمة وجوده، وهويته الممزوجة بطعم الحرية والكرامة. هي جوهر القضية التي بات يحيا من أجلها ، وتهون أمامها كل عذابات السجون وعمليات الذلّ والقهر، وتتساقط كل المؤامرات.

لقد ارتقت الأرض لدى سحر، كغيرها من الروائيين، إلى مستوى الرمز حين جعلت شخصياتها الثورية خائفة من ضياع هذا الرمز، لأنّه يمثّل المصير والوجود. كما قال حسام: (إن ضاع الرمز أضيع أنا؟ ماذا يبقى؟)[8]. فالأرض هي السلاح الوحيد بيد الفلسطيني في مواجهة المنفى الذي يذوّب الذات الفلسطينية، ويفقدها خصوصيتها العربية.

ثانياً – تحديد المكان الروائي:

المكان الروائي هو مكان محدّد في أغلب الأحيان، وهو (مسرح الأحداث، أو الحيّز الذي تتحرك فيه الشخصيات، أو تقيم فيه)[9].

وقد حددت سحر خليفة أمكنتها الروائية بدقة حين عمدت إلى اختيار أمكنة واقعية، وتسميتها بأسمائها الصريحة من : "المدن ،القرى، المناطق والضواحي" . مثل " نابلس، القدس، رام الله ، وادي الريحان، جنين، تل أبيب، بلدة عين المرجان، جريشة ،.. الخ"، وذلك لأهدافٍ متعدّدةٍ ، منها :

1- تأكيد الهوية العربية للأمكنة .

2- توفير الإيهام الفني لرواياتها .

3- توثيق بعض الأحداث الواقعية بطريقة فنية بوصفها شاهداً على وحشية الاحتلال، ومنها "حدث مهاجمة مقرّ الرئيس ياسر عرفات في رام الله ، ومقتل الصحفية البريطانية "راشيل" دهساً بجرافات الاحتلال.... الخ"، وبالتالي

---

[4]خليفة، سحر : *الصبار*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الثانية ، 1999 ، ص153.

[5]الرواية السابقة : ص150.

[6]الرواية السابقة : ص137.

[7]خليفة، سحر : *عباد الشمس*،دار الآداب – بيروت ، الطبعة الرابعة ، 2008 ، ص410.

[8]خليفة، سحر : *باب الساحة*، ص176.

[9]الشامي، د. حسان: *المرأة في الرواية الفلسطينية (1965- 1985)*– دراسة – اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص241.

توفير نوع من المصداقية لما تعرض من أحداث ، وخاصةً أنها تجري في فترة زمنية محددة من تاريخ القضية الفلسطينية.

4- حماية التّراث الفلسطيني، والحفاظ على هويّة المكان من التّشويه والضّياع، بهدف مقاومة محاولات التهويد المستمرة، (فالأسماء الجغرافية والتاريخية – حسب تعبير هامون – تستدعي الأهلية الثقافية للمتلقي ، فتحفّزه على تقوية حسّ الانتماء إلى التاريخ)[10].

تتحرك شخصيات سحر خليفة في أغلب رواياتها في فضاء مدينة نابلس بوصفها مسقط رأسها، فنابلس هي الحيّز المكاني الذي يؤطر أغلب رواياتها، وقلّما خرجت الكاتبة عن حدود مدينة نابلس إلى مدن أخرى منها (رام الله، القدس، ....)، ولم تخلُ رواية من حضور هذه المدينة بكل شوارعها وأحيائها وساحاتها ، ومواقعها الأثرية والتراثية المميزة، وما طرأ عليها من تغيير ، باستثناء رواية "صورة وأيقونة" التي شكلت مدينة القدس مسرحاً لأحداثها، هذه المدينة التاريخية المقدّسة التي تتعرّض للتهويد والتمزّق ، بهدف إلغاء الوجود العربي.

تبدو نابلس في الروايات مركز استقطاب الشخصيات الروائية، مشكّلةً قاعدةً ثابتةً لها، وقد لعب الوصف دوراً بارزاً في إيضاح طبيعتها ومعالمها، إذ تبدو المدينة باردة، رطبة، غارقة بالوحل والضباب:

(ليل نابلس البارد الرطب ينخر الرئتين. والربيع مازال شتاءً. والوحل يلوّث الطرقات المهجورة. والناس نيام. وسيارات الدورية لا تنفك تذكّر بالعين البصيرة واليد القصيرة)[11]، و(ضباب المدينة كالتخريم يهبط من قمّة عيبال)[12].

تظهر المدينة نائمة عائمة في جوّ سديمي شتائي بارد، (فالحياة أصبحت باردةً بل أكثر برودةً)[13]، حتى تكاد (الأرض تموت من شدّة الصقيع)[14].

بينما تبدو نابلس في رواية "باب الساحة" (كانون نار، والمصابيح تأتلق كحبّات الدّق)[15] مع نشوء الانتفاضة، وتتحول ساحتها الحجرية (المسمّاة بباب الساحة إلى مسلخ يُعلّق فيها العملاء على الكلّابات مثل الغنم . وسمّوها الساحة الحمراء)[16].

هذا التّطوّر في صورة المكان من مدينة رطبة باردة إلى مدينة متوهجة بلهيب الانتفاضة، يتعلق بشكل وثيق بتطوّر الأحداث وطبيعتها، إذ لا يمكن فصل المكان عن الحدث الروائي بأي حالٍ من الأحوال . لكن (نابلس بردها قاسٍ يخترق العظم . ورغم النيران والضرب والطّخ مازالت نابلس مثل الثلج)[17]. فعلى الرّغم من كلّ الهجمات تبدو نابلس صامدة، حيّة، ناطقة، (ليست كتلة إسمنتيّة صمّاء ، بل يخترقها دفق إنساني حي، كما يجعل منها شرط وجوده)[18]:

---

[10] **أحمد، د.مرشد: *البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005،ص43.**

[11] **خليفة، سحر: *الصبار*، ص58.**

[12] **خليفة، سحر: *باب الساحة*، ص16.**

[13] **خليفة، سحر: *عباد الشمس*، ص378.**

[14] **خليفة، سحر: *الصبار*، ص24.**

[15] **خليفة، سحر: *باب الساحة*، ص14.**

[16] **خليفة، سحر: الرواية السابقة، ص39.**

[17] **خليفة، سحر: *ربيع حار(رحلة الصبر والصبار)*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الأولى ، 2004، ص268.**

[18] **نجمي، د. حسن: *شعرية الفضاء السردي*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000، ص145.**

(كانت المدينة تمتدّ تحتهما بساطاً ، والدور في الوادي الضخم حجارة في مجرى النهر. وقمة الجبل المقابل حيث نُسفت دور جديدة تبدو مرفوعة لحضن الرب. ورغم النسف ورغم الحريق، فالشجر الداكن مازال أخضر، وصخور وسماء زرقاء)[19].

كذلك تظهر القدس في رواية "صورة وأيقونة وعهد قديم "حزينة كابية شاحبة، تشي بالجفاف والموت: (كل الأشكال والأشياء والأماكن باتت كابية وكئيبة. أين الألوان في الساحات والطرقات والأقواس حين كانت معي ! كلّها ضاعت وبدت جرداء رماديّة تتهدّدني بجفاف الموت)[20].

تظهر القدس من منظور الراوي بصورة مغايرة لما عهدها، حين لمس التغيير الواضح الذي أصاب المدينة بعد الاحتلال الصهيوني، وممارساته التعسّفية لدفع المزيد من السكان للهجرة، ومن هنا جاء إهمال الأحياء العربية وتهميشها، وحصارها، وتشويه معالمها ، فبدت القدس (قذرة جدّاً، مهملة مهجورة كوجه عجوز، بعكس ما كانت في الماضي أيام الصبا وشباب القلب)[21].

هذه الصّورة الكئيبة للقدس عاصمة التاريخ تسلّلت إلى قلب الرّاوي فآلمته ؛ لعدم إحساسه بجمال هذه المدينة التي فقد فيها أجمل ذكرياته ، فشعر بالموت يتهدّده في كلّ مكان، وهو الموت الذي يتهدّد في الحقيقة مدينة القدس بفعل سياسة التّهويد التي تتّبعها سلطات الاحتلال، حتى ريفها الذي كان مصدراً للرّاحة والأمان أصبح (كهفاً شديد السّواد)[22]. فصورة القدس وما يتهدّدها، انعكاسٌ لصورة المقدسيّين والفلسطينيين عموماً، ولحالتهم الاجتماعيّة والنفسيّة.

لقد عكست سحر خليفة أعماق الإنسان الفلسطينيّ من خلال صورة المدينة (فحين تقرأ المدينة، تقرأ الإنسان داخلها)[23]، بارد القلب، خاوي النّفس، يتخبّط في أوحال الهزيمة، يعاني القلق و الضّياع، وهذا ما لمسناه في معالم المدينة.

ثالثاً – علاقة الشخصية بالمكان:

لا يتوقف حضور المكان على (المستوى الحسي، وإنما يتغلغل عميقاً في الكائن الإنساني، حافراً مساراتٍ وأخاديدَ غائرةً في مستويات الذات المختلفة ، ليصبح جزءاً حميميّاً منها ، وذلك لأنّ المكان هو الفسحة / الحيّز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم)[24]. ولذلك فعلاقة الشخصية بالمكان ليست علاقة عابرة أو هامشية، بل علاقة مترابطة تقوم على التأثر والتأثير المتبادل، وهي ضرورية وأساسية للكشف عن أعماق الشخصية وسبر أغوارها، إذ يكشف المكان عن طبائع الشخصية التي تقطن فيه، ومستواها الاجتماعي والثقافي وانتمائها الديني.

وتختلف هذه العلاقة تبعاً لأشكال المكان، وأثرها في بناء الشخصيّة، فقد تكون علاقة ارتباط وتعلّق ، أو علاقة نفور وكراهيّة، ويلعب الوصف دوراً مهمّاً في إضاءة هذه العلاقة بإبراز تضاريس المكان التي تعبّر إلى حدّ بعيد عن

---

[19]خليفة، سحر : *باب الساحة*، ص197.

[20]خليفة، سحر : *صورة وأيقونة وعهد قديم* ، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الأولى ،2002 ، ص67.

[21]الرواية السابقة : ص100.

[22]الرواية السابقة : ص78.

[23]انظر نجمي، د. حسن : *شعرية الفضاء السردي* ، ص144.

[24]حسين ، خالد حسين : *" شعرية المكان في الرواية العربية – الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً "*– كتاب الرياض ، العدد 83 ، أكتوبر 2000م ، ص10.

طبيعة الشخصيات ومشاعرها وبعض مواقفها ... وتتوقّف هذه العلاقة تبعاً لطبيعة المكان وأشكاله، وما يؤديه من وظيفة على مستوى السرد الروائي ، وفيما يلي نعرض لأهمّ الأماكن الّتي تجسّدت في أعمال الكاتبة :

أ- أماكن الإقامة الدائمة :

تتمثّل هذه الأماكن عادةً في البيوت التي تشكل (المرتكز الأول والمؤشر الدال على الطبيعة الاختيارية للشخصيات، إذ يشتغل البيت سردياً بوصفه البؤرة المكانية الأولى التي يشغلها الإنسان لتحقيق وجوده البشري في المكان)[25]، وقد لعب الوصف دوراً مهمّاً في إظهار الرابط بين البيت وصاحبه،(فإذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان، فالبيوت تعبّر عن أصحابها)[26]، وقد اختلفت أوصاف البيوت تبعاً لمستوى الشخصيات، ونوع الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها، ففي رواية "ربيع حار" يبدو منزل "سعاد" بسيطاً، يعبّر عن دفء البيت الفلسطيني:

(رغم أنهم لا يملكون جنينة ولا حديقة ، إلّا أنّ دارهم المعلّقة فوق القباب والأقواس مليئة بأزهار بيتيّة ونعنع وياسمينة تتعربش فوق المدخل، وتجعل منه عريشة صغيرة)[27].

يجعل الوصف هذه الدار وكأنها معلّقة في الأفق، شامخة فوق القباب، فتبدو عالماً جميلاً من الأحياء والنباتات، فتشعر بطعم الحياة فيها، وقد حرصت الكاتبة على إضفاء الحميمية للبيت الفلسطيني لتعطي الإحساس بدفق الحياة، هذه الحياة المعرضة للاستلاب في كل لحظة من الصهيوني الذي لا يتوانى عن هدم البيوت على رؤوس أصحابها، أو تشريدهم للاستيلاء عليها ؛ انتقاماً منهم ، وتعبيراً عن حقده وكراهيته لهم.

وهنا تتشكّل ثنائية (الحب / والكراهية)، ويبدأ الصراع حول المكان رمز الوجود الإنساني، وفي هذه اللحظة يتّحد الفلسطيني بالمكان ليشكّلا معاً وحدة المصير والوجود، ففضل القسّام حين رأى منزله يدهس بجرّافات الاحتلال الحاقدة ، أدرك بوعيه أنّ فعل التدمير هو قتل لذاته، وإلغاء لوجوده، فـ (أسرع ليحتضن الدار. جلس على العتبة وتربّع. قال الجرافة لن تمرّ إلّا فوقي، فوق جسدي)[28]. بينما يتقدّم المحتلّ (إنسان الغاب، مثل الآلة، لا يتحرّك ولا يبدي فهماً أو عطفاً ، فقط يمشي)[29]؛ ليقتلع الحياة من جذورها، ويسحق ما بقي من الحجر والبشر، لأنه يجد في إقصاء الآخر، تحقيقاً للفكرة القائلة " وطن بلا شعب لشعب بلا وطن ".

أمّا في رواية "باب الساحة" فقد احتلّت دار "نزهة " حيزاً كبيراً ومهمّاً في الرواية، فهي ملتقى الشخصيات الرئيسة، ومنطلق الأحداث، ومحطّ اهتمام وأنظار الآخرين؛ لأنها دار مشبوهة، يدخلها الأغراب واليهود منذ عهد سكينة "أم نزهة"،(وعندما تنفتح عدسة الرواية على الماضي، فإنها تصور ماضي المكان نفسه الذي يبدو امتداداً للحاضر)[30]، ويشكّل وجود شخصية أو غيابها عاملاً مهمّاً في تشكيل هذا المكان وتغيير أحواله.

---

[25] **عبيد، د. محمد صابر- د. سوسن البياتي : *جماليات التشكيل الروائي، (دراسة في الملحمة الروائية "مدارات الشرق " لنبيل سليمان)*، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، الطبعة الأولى، 2008 ، ص240.**

[26] **بحراوي، حسن : *"بنية الشكل الروائي، (الفضاء – الزمن – الشخصية)"*، المركز الثقافي العربي ، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، ص 43.**

[27] **خليفة، سحر : *ربيع حار*، ص101.**

[28] **الرواية السابقة: ص371.**

[29] **الرواية السابقة : ص 373.**

[30] **ماضي، د. شكري عزيز : *الرواية والانتفاضة نحو أفق أدبي ونقدي جديد*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى ، 2005 ، ص92.**

ومن خلال التحولات التي طرأت على الدار، ترصد الكاتبة تحول العلاقات الاجتماعية السائدة في جو الاحتلال الخانق، حيث الانتفاضة في أوجها، وحظر منع التجول يشكل كابوساً حقيقياً.

فالدار بالأصل (عتيقة يعود تاريخها لما قبل زلزال الـ 27.... وظلت مهجورة حتى تشقّقت قصارتها وتداعى الخشب عن نوافذها)[31]، ثم اشتراها رجل غني يعمل في الخليج وقام بترميمها. وبعد وفاته تعود الدار إلى التهالك، ونلمس التحوّل الخطير الذي طرأ على المكان، تبعاً لتعاقب الأحداث عبر فترةٍ زمنيةٍ معيّنةٍ، إذ يلعب حدث وفاة الزّوج "صاحب الدّار" دوراً فاعلاً في انهيار هذه الدّار، وبدء التّحولات فيها، حيث تتحوّل من مكان للعيش الرّغيد الشّريف، إلى دار للدّعارة، واستقبال الزّبائن الغريبة:

(وعادت الدار تتلألأ، والزجاج يبرق والدرجات تضوي، لكن رائحة الصابون اختلفت، وتضاعفت مراءات الحمّام، وكثر تعليق المناشف، وامتلأت أغصان الحاكورة باللمبات وسمّاعات تبثّ موسيقى فرنجية)[32] .

يظهر المكان في الوصف السّابق بوضعٍ مريبٍ ، فكلّ جملةٍ فيها دلالةٌ عميقةٌ ، فكثرة المناشف، وأصوات الموسيقى العابثة، ومظاهر التّرف والغنى التي تدل عليها زيادة مراءات الحمّام، وروائح الصّابون المختلفة ، كلّها تدلّ على العبث والمجون الذي يملأ البيت. وهنا تتشكّل علاقة سلبيّة بين هذا البيت وبين سكّان الحارة المحيطين به، هذه العلاقة أساسها الرّيبة والتّوجس والاحتقار لهذا النّوع من البيوت، وللشّخصيات القاطنة فيه.

وهنا ترصد الكاتبة واقع المجتمع الذي يرزح في ظلّ أكثر من سلطة : سلطة الاحتلال، وسلطة الأعراف والتقاليد ، وسلطة الأخلاق ، لذلك كان الحكم على نزهة وعلى دارها مجحفاً ، إذ لم يفكر أحد منهم بالدوافع التي اضطرت صاحبة الدار إلى هذا السلوك الشائن .

تقع الشّخصيات الرّئيسة في مأزقٍ ، فتضطرّ للّجوء إلى هذا البيت، ويعدّ ذلك تمهيداً لما سيطرأ على الدار من تحولات، إذ يتاح للشخصيات التعرف على نزهة التي لم تتوانَ عن مشاركتهم في انتفاضتهم، والتعبير عن ظلم مجتمعها الأقسى من ظلم الاحتلال . ويأتي حدث استشهاد "أحمد" – أخو نزهة –ليشكّل نقطة التغيير الكبرى لهذه الدار، إذ تحولت إلى وجهة لأهل الحارة الذين احتشدوا وتدفقوا نحوها؛ لتقديم العزاء لنزهة بأخيها الشهيد:

(امتلأ الزقاق بالمعزّين والمتظاهرين حتى لم يبق فيه زاوية لم تتكدس . واتجهت نحو الدار حشود . الدار المشبوهة ما عادت تنأى عن الحي . انفتحت مصاريع الأبواب والشبابيك وامتلأت الحاكورة بالفتيات عن آخرها... وقف الشبيبة والشباب على حفف السور. أعلام ترفرف وسعف نخيل وورود وزنابق وأكاليل. وصور الشهيد الملصوقة انزرعت على كل الجدران . وانطلقت أنغام وأناشيد تحيّي الصمود وأهل البلد ، وصفقات تعلو فوق الأذان)[33] .

هذا التطوّر في الأحداث قد أثّر بشكلٍ مباشرٍ في المكان، فبعد أن كانت الدار مكاناً مشبوهاً منبوذاً، أصبحت مقصداً لسكان الحي؛ بعد أن قدّم شهيداً للوطن، وأصبح مكاناً لانطلاقة شرارة الثورة، وقد هدفت الكاتبة من حصر الأحداث في دار نزهة إلى إظهار التحولات الحاصلة "إيجاباً وسلباً" في المكان والشخصية في فترةٍ زمنيةٍ محكومة بظروف الانتفاضة، إذ تعكس هذه التحولات تحرراً في علاقات المجتمع، وانتصاراً للانتفاضة التي وحّدت أهل الحارة

---

[31] **نظر خليفة، سحر : *باب الساحة*، ص37.**

[32] **الرواية السابقة: ص 38– 39.**

[33] **الرواية السابقة : ص215.**

في مشهدٍ بطولي، والتّركيز على دار نزهة، (كواقعٍ يرتبط بالأشخاص)[34]، ينطوي (على دلالةٍ رمزيةٍ تتمثّل في نقد حركة الواقع المشتعل، ففي ظلّ الانتفاضة يصبح المكان/ الدّار مدلول مهمّ يتّصل برؤية الرّواية ، كما قد يتّصل برؤية المستقبل في الحاضر)[35] .

ب- أماكن الإقامة القسرية :

وهي الأماكن التي تُفرَض على الإنسان ليقيم فيها، وتتنافى مع إرادته وحريّة اختياره، ولذا تتّسم هذه الأماكن بالكآبة والظّلمة، والرّطوبة، والبرودة، وهذا ما يضفي على الشّخصية المقيمة فيها مزيداً من القلق، والكآبة، والإحساس بالغربة.

وتتمثّل هذه الأماكن عادةً في (السّجن/ المنفى/ المخيّمات)، وفيها يفقد الإنسان ذاته وحريّة اختياره للحياة، (وهنا تتشكّل نقطة انتقال من الخارج إلى الداخل، ومن العالم إلى الذّات بالنّسبة للنّزيل، بما يتضمّن ذلك الانتقال من تحوّل في القيم والعادات، وإثقال لكاهله بالإلزامات والمحظورات... إضافةً إلى سلسلة التّعذيب اليوميّة)[36].

ولا نعثر في روايات سحر خليفة على شرح تفصيلي للمنفى والمخيّمات، بينما تجد صورة السّجن وآثاره بارزة في عدد غير قليل من رواياتها من خلال ما يخلّفه من جراح – نفسيّة وجسديّة – عميقة في المعتقلين ، إذ لم تتطرّق سحر إلى وصف معالم السّجن، بل أوحت به من خلال سلسلة التّعذيب التي يمرّ بها السّجين، فبدت صورة السّجن مظلمةً، باردةً، موحشةً، مجرّدةً من أدنى حقوق الإنسان.

فباسل (أبو العز) حين اعتقله اليهود أشبعوه ضرباً حتى فقد الوعي (فأحس بالآلام تسري في جسده كتيار كهربائي لا يرحم. وأغلق عينيه بشدة وبكى وهو يتذكر صدر أمه وعيني عادل)[37].

هذا الضّرب المضني هو بداية لسلسة تعذيب طويلة ليس الجسد هدفها وحسب، بل نفسية السّجين أيضاً، بهدف ترهيبه وتشويه صورته، ليغدو السّجن مصنعاً للتّشريح، و مسلخاً للمقاومين، فـ "إلياس" المعتقل كما يظهر في رواية "الصّبار" قد مرّ بسلسلة تعذيب طويلة، شوّهت صورته بشكلٍ مرعبٍ:

(تأوّه باسل بإشفاق وهو ينظر في الوجه المشوّه والشفة المشرومة . وكانت العين الوحيدة في الوجه المشوّه تنطق بالسعادة.... وضحك ، فانفتحت شفته المشرومة عن أسنان مهمّشة. وتقلّصت عضلات الوجه المكرمشة، فامتلأ قلب باسل بالفزع . لكنه مدّ يداً باردةً تتصبب بالعرق. وسلّم على اليد اليسرى وهو ينظر نحو الأخرى . وكانت مغطاة بكيس من الجلد الأسود . آه . للنصر ثمنٌ باهظٌ ، واسم أبو العز ليس جميلاً. ولن أخطط لأي مشروع في يوم من الأيام)[38].

هذه الصّورة المشوّهة أثارت الذّعر في نفس "باسل" الشّاب الذي لم يعتد عذاب السّجن، وهذا ما يسعى إليه المحتلّ، بأن يجعل أمثال (إلياس) المعذّبين نموذجاً للتّرهيب، وكسر نفوس السّجناء، وهذا من أقسى أنواع التّعذيب.

---

[34]أبو بشير، د. بسام علي: "*جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة* "، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الخامس عشر ، العدد الثاني، ص267- 285، يونيه 2007، ص 279.

[35]ماضي، د. شكري عزيز : *الرواية و الانتفاضة نحو أفق أدبي ونقدي جديد*، ص60.

[36]عبيد، د. محمد صابر – د. سوسن البياتي: *جماليات التشكيل الروائي* ، ص242.

[37]خليفة، سحر : *الصبار* ، ص96.

[38]انظر الرواية السابقة : ص97.

كما يلجأ المحتل إلى زرع الشك بين السجناء بدَسّ العملاء بينهم، بهدف تفرقتهم، فـ "زهدي" حين دخل السجن (نظر الجميع إليه بتوجس . فأحس بغربة شديدة. أشد من تلك التي عاناها طوال الأيام الخمسة الماضية في الزنزانة. وطفرت إلى حلقه غصة مريرة حين سمع همسة من أحدهم... يعمل في إسرائيل)[39].

هذه الغربة المكانية تؤدي إلى غربة نفسية أشد وطأةً وتأثيراً في الشخصية :

(ما هذا؟! .... ألا يعبأ بي أحد؟ حتى اليهود لم يفعلوا هذا. حتى الضرب والتحقيق أخف وطأةً من هذا الإهمال المريع)[40].

أمام الشك والتوجس من كل سجين جديد تخفّ وطأة الضرب والتحقيق، فأثناء التعذيب يشعر الإنسان ببطولته وقيمته حين يتحدى المحتل، لكن هنا في السجن وبين أبناء وطنه (أيّة غربة؟!)[41]. هذا الإحساس الذي يلغي وجود كل شيء، والوسيلة الأكثر فتكاً في الإنسان العربي .

وأمام سلسلة التعذيب يقاوم المناضل أن ينسى جسده، هذا ما تعلّمه "حسام" من صديقه "سامح" في السجن: (إشلح بدنك.... إخلعه كما يخلع المرء الرداء .... من السهل أن نكتب الكلام. من السهل أن نبلع الكلام)[42].

كل ذلك يهدف إلى ترسيخ صورة السجن والتعذيب في نفوس السجناء وعقولهم، يتذكرونها حتى بعد خروجهم كلّما تحسسوا أجسادهم المخدّرة بآثار التعذيب؛ بغرض إحباطهم، فتتوالى في ذهن حسام صور التعذيب التي مورست على صديقه سامح، وهنا يغدو السجن تجربة يعيشها السّجين في الواقع والخيال، تقضّ مضجعه، وتدمّر ذاته.

إنّ السّجن الصّهيوني هو مكان للتعذيب والألم وسحق النفوس، وأداة لتذويب الشخصية الفلسطينية، وللمتلقي أن يتصور أوصاف هذا المكان، وملامحه وتفاصيله ودهاليزه، التي كثيراً ما تحجم سحر خليفة عن اختراقها من الداخل؛ لتقف عند آثاره ومفاعيله.

وعلى الرغم من كل المعاناة، تحوّل السجن في ثنائية "الصبار"، من مكان للقمع والإذلال، إلى مدرسة تعليمية تثقيفية ثورية، تؤهّل الجيل للثورة، وتخرّج رجالاً مناضلين مقاومين :

(فتحت مدرسة الشعب أبوابها. والتم الأخوان والرفاق في جماعات صغيرة . هنا محو أمية. وهناك تحضير للإعدادية. وفي تلك الزاوية تتكامل التوجيهية)[43].

لقد اكتشف الفلسطيني مأساة الواقع ، وأنّ المجتمع سجنٌ أكبر لا يقلّ قسوةً وضراوةً من سجن العدو، فلا معنىً للحرية في ظلّ الاحتلال ، وبذلك تأسّس وعي جديد، حوّل السجن إلى مكان للمقاومة، وقهر العدو الصهيوني، من خلال التسلّح بالوعي ، وتثقيف الذات، وإنعاش الروح بالأمل. فـ "باسل" تعلّم من السجن ما جعله شابّاً ناضجاً مثقفاً، حتى بات يحلم بالعودة إليه حين خرج واكتشف أنّ الواقع أزمة:

(السجن مدرسة، أكبر مدرسة. الواحد منّا لا يعرف حقيقة نفسه إلا إذا اختبرها . والسجن يجعلك تكتشف أشياء كثيرة عن نفسك وعن الناس والبلد والحياة كلها من فوق لتحت)[44].

---

[39] الرواية السابقة : ص105.

[40] خليفة، سحر : *الصبار* ، ص105.

[41] الرواية السابقة : ص106.

[42] انظر خليفة، سحر : *باب الساحة*، ص62 – 63.

[43] خليفة، سحر : *الصبار*، ص103.

[44] خليفة، سحر : *عباد الشمس* ، ص330.

إنّ تجربة السّجن تجربةٌ غنيةٌ، شكلت الرؤية الواضحة للعمل الثوري، فكانت مكاناً للعثور على الذات، مكاناً للبطولة والعزة في زمن الهزائم، (فسجون العدو الصهيوني في الرواية العربية في فلسطين كانت أداة صهر الفلسطيني وصقله في الأغلب الأعم، كشفت معدنه الأصيل الثابت بعد أن أزالت عن جوهره الشوائب كلها التي كانت عالقةً به)[45].

جـ – أماكن الإقامة المؤقتة والعابرة:

تشكّل هذه الأماكن عادةً محطة استراحة عابرة للشخصية، أو مكاناً تلتقي فيه الشخصيات لتبادل الآراء والأفكار، أو تناقل الأحاديث والأخبار (كالمكتبة، الحمّامات العامة، المقاهي، الفنادق، الشوارع والساحات والأسواق...).

وعلى الرغم من أنّ علاقة الشخصية بهذه الأمكنة عابرة، إلّا أنها قد تكون في غاية الأهمية بالنسبة إلى بنائها وتقديمها، ورصد تحولاتها وتطورها من خلال انتقالها بين هذه الأماكن.

تشكّل الحمّامات انعطافات سردية تلتقي فيها شخصيات المدينة على اختلاف فئاتها وطبقاتها، ولم تُظهر سحر إلا حمّامات النساء التي أصبحت في ظل الاحتلال الملتقى الوحيد للنساء التقليديات، بعد أن كان قبل الاحتلال مكاناً للسيدات المترفات اللواتي يجعلن منه (مشهداً يذكّر بقصص ألف ليلة وليلة ، عطور وحنّاء ومناشف مقصّبة يفوح منها المسك والطيب والبخور . زفات عرائس يتأهبْن لليلة الدخلة ، ونفسات يحتفلن بمواليد ذكور، ونسوة يتسبّعن يوم الأربعين، ويُقمن الاستعدادت لليلة الحمل الجديد)[46].

في هذا المشهد الذي يعود إلى زمن ما قبل الاحتلال، يغدو الحمام مكاناً خصباً، يوحي بالحياة وتجددها، وتدفقها بخصوبة في أنحاء البلد ، لكن مع وجود الاحتلال وشحّ المياه تغيّر الحال، وأصبح الحمّام بؤرةً للجراثيم ، ومرتعاً للحشرات، عشّشتْ في أرجائه الرطوبة والعفونة، وأصبحت خيوط العناكب عنصراً تشكيلياً في كل زاويةٍ من زواياه :

(كل شيء كان سخيّاً.... أما الآن، فعَنْ جيوش الصراصير التي تحتل حيطان الحمّام فحدّث، وعن الرطوبة والعطونة وشتى الآفات فاحك ولا تتحرّج . وتلك الأرائك ، حيث كانت ترتاح النسوة المعطّرات بعد معركة التدليك، أصبحت أثراً بعد عين . أكياس عفنة تسطّحت أركانها وانساب من داخلها القش والتبن والبقّ . والبهو الذي كان محاطاً بأصص الياسمين والريحان أصبح مرتعاً للجراذين والبزّاق . والكوّات الزجاجية التي تزيّن السقف بشعاع فضائي أين منها قناديل الجنة، أضحت الآن مزارع أعشاب الرطوبة وخيوط العناكب، وجحافل هوام لا تنفكّ تذكر بسمات الوضع الحاضر)[47].

هكذا تبدو الحمّامات العامة ملتقى للنساء ، لكنها غدت في زمن الحصار و الحرمان ملاذاً في ظلّ أزمة المياه التي حلّت بالمجتمع ، فتحولت من مكانٍ مفعمٍ بالحياة الهانئة المرفّهة، إلى مكان مقزّز للنفس، صادم للذوق العام ؛ بسبب الإهمال والخراب الذي لحق به في زمن الاحتلال، وهذا انعكاسٌ للواقع الفلسطيني المتدهور والمتصدع ؛ إذ تفضح ملامح المكان ممارسات الاحتلال ، ومحاولاته المستمرة لتشويه الحياة الفلسطينية، من خلال اختلاق الأزمات، وعدم تأمين أي نوع من الخدمات للسكان، بهدف إضعافهم ، ودفعهم للهجرة.

---

[45] ***عليان ، د. حسن : " الرواية العربية من الاحتلال إلى المقاومة (في فلسطين)"*، مجلة جامعة دمشق ،المجلد 22 ،العدد (1+2) ، 2006 ، ص210.**

[46] **خليفة، سحر : *عباد الشمس* ، ص231.**

[47] **الرواية السابقة : ص232.**

كما تشكّل الأحياء والشوارع و الساحات مسرحاً لحركة الشخصيات، ووسيلة لانتقالها بحرية وعفوية. وتبدو الشوارع في روايات سحر مفتوحة لا تفضي إلى مكان محدد، ففي ثنائية "الصبار وعباد الشمس" كانت الشوارع في كثير من الأحيان مكاناً لتبادل الآراء والحوار حول قضايا البلد، وما شمله من تغيير، وخاصةً بين عادل وأسامة، فشكّلت بعداً دلالياً على التغيير الذي شمل عقول الناس ونفوسهم:

(صمت الاثنان وتحجّرا. ومرّت عربة يد ضخمة تحمل صناديق وأكياس المأكولات فباعدت بينهما. ثم مشيا بصمت واخترقا الشارع الرئيسي ودلفا إلى أحد الأزقة المؤدية للبلد القديمة....وصفعت أنفه رائحة الرطوبة والعفونة في الأزقة الضيقة المعتمة. ورائحة القذارة والنتن. خضار وفواكه فاسدة ملقاة بجوار الجدران. وبرميل صدئ مليء بالسمك المهترئ. وأوراق بلّلها الوحل تملأ الشوارع المبلطة بالحجارة الأثرية القديمة.

– تغيّرتم، كل شيء تغيّر . والقذارة تملأ شوارعكم.

– شوارعنا؟

– شوارعنا شوارعكم . المهم أنكم تغيّرتم . احتلال هذا أم انحلال؟)[48].

يجسّد الحوار التحول الحاصل في بنية المجتمع الفلسطيني بفئاته المختلفة ، ويكشف اختلاف الشخصيتين في رؤيتهما للواقع وموقفهما منه؛ فأسامة الكرمي الذي عاد إلى الوطن بعد غياب ، يعي خطورة التحولات التي لمسها في المجتمع: فساد، عمل الفلسطينيين في مصانع العدو، امتلاء البلاد بالسلع الإسرائيلية، بينما يستسلم عادل وأمثاله لهذا الواقع؛ يأساً من التغيير.

إنّ ما يطرأ على المكان من تغيير، هو انعكاسٌ لتغيّر الشخصيات المخترقة لهذا المكان ، فالفوضى واللامبالاة التي عمّت الناس ، انعكست على شوارعهم وأحيائهم ، و ذلك بفعل ظروف الاحتلال القاسية التي أثقلت كاهل الجميع، وشوّهت نفوسهم وعقولهم ، فتحولت الأزمة من احتلال إلى انحلال شوّه معالم المكان ، وملامح الإنسان.

لقد شكّلت الأماكن العامة صورة للإنسان المخترق لها ، والمتنقل ضمنها، كما عكس تغيّرها وخرابها، الخراب الذي ينهش الوطن العربي ، والمأساة التي حطّمت الشخصية الفلسطينية، ومزّقت ذاتها وهويتها.

د–أفق المكان المنشود:

يبقى الوطن بالنسبة للفلسطيني حلماً دونه مشاق كثيرة ، يسكن هذا الحلم وعي الفلسطيني ، ويتجلّى في أفعاله وسلوكه وأقواله، حلمٌ طارت معه أنفاس أبو العزّ:

(في يوم من أيام الصحو سيرتفع غمام أبيض، ويصبح العالم شفافاً جداً، والزهور قطرات ندى. وتهبّ الريح تسبق أوراق الخريف وجنوح الليل. ومع السّماعة ينطلق أذان أزرق، يسري فوق الغابات والوديان وقمم الجبال ورؤوس الشجر، يتداخل في الظلمة نوراً، تصحو الغابات من نوم عميق ، وتتراقص ، تطفو تلمع تخبو تقفز ترتجّ فتنطلق الأفواج . طيور بيضاء بمناقير حمر وأجنحة كالريح . اسبق الريح يا خضرون أسرع ، صالح مازال وراء الصحو)[49].

إنّ الصورة السابقة التي تضم عالماً من عوالم السحر، تضفي إيقاعاً خاصاً على النص من خلال بعض الصور التي تشكّل من خلال تيار الوعي عالماً يحلم به كل فلسطيني ، عالماً متخيّلاً لا يمكن تحقيقه في الواقع تحت وطأة الاحتلال ، إذ (تظلّ العلاقة بالمكان محكومة بطبيعة الزمن الفلسطيني ، سواء أكان المكان فلسطين، أم

[48] **خليفة، سحر : *الصبار* ، ص27.**

[49] **خليفة، سحر : *عباد الشمس* ، ص409.**

المخيمات والمنافي البعيدة)[50]. وإن (احتلّت الأرض المساحة الأوسع في ذاكرة الإنسان الفلسطيني الذي عرفها، فإنها للجيل الذي وُلِد ونما بعيداً عنها، تبقى شيئاً آخر أكثر من مجرد ذاكرة)[51].

ففي "بروكلين" حيث كانت الطفلة "زينب" تتوق للعودة إلى بلادها كلّما ردّد والدها كلمة " البلاد"، راسمةً في ذهنها أجمل صورة عن وطنها الأم، حالمةً بلحظة اللقاء:

(كلمة البلاد رنّت في أذني كما الأغنية، سحبة موّال ، كما المعجزة... حكاية من حكايات علاء الدين والفانوس السحري وشبيك لبيك . حكاية من حكايات الوالد يحيط بها الدخان والبخور وأجنحة الفراش . دفعتُ الباب وأنا أصيح : "راجعين للبلاد، راجعين للبلاد")[52].

إنّ مفعول كلمة " البلاد" لها وقعٌ خاصٌ في نفس أي فلسطيني، يعاني الأزمات ، ويتصدى لها بكل إيمانٍ، آملاً بالتغيير. فحب الوطن، والإحساس بالانتماء إليه – وخاصة لدى الإنسان المغترب أو المنفي – يزيد من تعلقه به؛ فيكون الوطن في الذاكرة والمخيلة أجمل بكثير من الواقع، أشبه بمعجزة، أو عالم من عوالم السحر والخيال.

لكن "زينب" التي تركت المنفى ، وعادت إلى موطنها الأصلي للحصول على ميراث والدها، والتمتع بسحر البلد الذي طالما حلمت برؤيته : (وادي الريحان كانت أبداً في ذاكرتي عكس نيويورك. بلدة صغيرة، بلدة نقيّة ، أهلها بسطاء يحبون الخير والطبيعة ، بعكس نيويورك)[53].

اكتشفت أنّ الوطن الذي انطبع في ذاكرتها، ورسمته في مخيلتها مواويل الوالد ، وحكاياته السحرية، وحنينه الجارف للعودة إلى ربوعه، أجمل بكثير من الوطن الأم المليء بالتناقضات، والفراغ المشوب باليأس:

(لفت نظري ذاك الفراغ وذاك السكون . فلا ناس ولا أولاد ولا مارة ، فكل شيء ساكن جامد هامد . حتى الكلاب أمام الدور لا تنبح ، والقطط تمشي تحت أشعة الشمس الساطعة ببطء وبلادة ، وروائح الزبالة والزبل وعبير أشجار الكينا تشكّل مزيجاً غريباً ملأني بالحزن والاكتئاب وحنين آسر . وبدأت صور الماضي وذكريات الطفولة في بروكلين تطفو على السطح وتملأ مخيلتي بخليط أحداث وقعت وأخرى حبكتها مخيلتي وخلّتها على وشك الوقوع . وغابت عيناي في أطراف الشارع المكتظ بمبانيه المتراكمة من غير انسجام تبحث عن سحر البلد الذي طالما حلمت برؤيته، ولم أجد إلا ذاك الفراغ وذاك الصمت وذاك التراكم)[54].

وأمام انكسار الحلم ، والصدمة بواقع الوطن، تتغير صورة المكان في عيني "زينب"، فالوطن الحقيقي واقع متصدّع ، يمور باليأس الذي حطّم النفوس ، والزيف الذي أخفى خلفه أطماع الإنسان و جشعه، فقررت أن تهجر الواقع وتعود إلى المنفى ، إلى الحلم والذاكرة ، وما بقي فيها من ملامح الوطن الجميل.

هذه العودة المستمرة إلى الوطن الحلم يجسّد أمل الشخصية بالتغيير، هذا الأمل الذي يتسرّب في أفكار الشخصية دون وعي منها ،عاكساً أحلامها بواقع أفضل يمور بالظلال وألوان الحياة المتجددة. فالواقع أزمة، والأمل بالتحرير بات بعيداً، فيبقى عالم الخيال والحلم هو الملاذ الوحيد من قسوة الواقع وظلمته.

---

[50]المسعودي، كريم مهدي : *الواقع الفلسطيني في الرواية – دراسة نقدية في أدب غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا* ، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ، 2006، ص218.

[51]وادي، فاروق : *ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية* ، ص 54.

[52]خليفة، سحر : *الميراث* ، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الثانية ،2007 ، ص15 – 16.

[53]الرواية السابقة : ص11.

[54]الرواية السابقة : ص43 – 44.

هذا الحلم المنشود يعكس عجز الإنسان الفلسطيني عن تحقيقه في ظل الواقع ؛ لذلك يلجأ إلى فضاء الحلم ليبني عالماً مكتملاً لا يُضاهى دون احتلال أو انحلال ؛ ولذا تبدو علاقة الفلسطيني بمكانه المنشود علاقة حنين وشوق عارم . فـ (القدرة على الحلم تشحن الناس بالأمل فلا يرحلون، وهذا أهم ما في الموضوع)[55]؛ إذ يغدو الحلم نافذة يطلّ منها الفلسطيني إلى عالم الحرية المطلقة، فيستمدّ منها قوة الحياة، وضرورة البقاء، وهذا ما يجعله يعيش حالة من التوازن العاطفي والوجداني، فلا يفقد البوصلة إلى أرضه ووطنه، حيث الحياة الحرة الكريمة التي يصبو إليها.

الخاتمة:

لقد شكّل المكان بأنواعه وأشكاله المختلفة مكوّناً مهمّاً من مكوّنات العالم الرّوائي للكاتبة، له تأثيره العميق والفعّال على سائر العناصر الأخرى، وقد رصدت الكاتبة تغيّر الواقع الفلسطيني وتناقضاته، وتطور شخصياته، من خلال التحولات والمتغيرات التي أحدثتها في المكان بأنماطه المختلفة، فتوغّلت في وجدان الإنسان الفلسطيني المعذّب، رصدت أفكاره وهواجسه، وهروبه إلى عالم الحلم، حيث الحرية والسلام .

وقد بقي المكان لديها محكوماً بالزمن الفلسطيني، زمن الاحتلال والمواجهة، وتحدّي الظّروف الصّعبة، ولذا كانت العلاقة بين الشخصيات والمكان، علاقة تبادلية ترتقي إلى مستوى الحميمية حيناً، وقد تنحط إلى مستوى التنافر أحياناً، ولاسيما حين يغدو المكان – السجن – أداة قمع وإذلال للنفوس، وسحق للهوية العربية بأيدي الاحتلال الصهيوني، الذي يسعى إلى تدمير المكان الفلسطيني وتهويده ، وغير ذلك من أساليب التنكيل والهيمنة التي عرضتها سحر خليفة في معظم نتاجها الروائي.

المصادر:

خليفة، سحر :

1- *"باب السّاحة "*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الثانية ،.1999

2- *" ربيع حارّ (رحلة الصبر والصبار)"*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الأولى ، .2004

3- *"الصّبّار "*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الثانية ، .1999

4- *"صورة وأيقونة وعهد قديم "*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الأولى ، .2002

5- *"عبّاد الشّمس "*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الرابعة ، 2008.

6-*"الميراث "*، دار الآداب – بيروت ، الطبعة الثانية ، 2007.

[55]-**خليفة، سحر : *عباد الشمس* ، ص 228.**

المراجع:

1- أبو بشير، د. بسام علي : *"جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة "*، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، ص267- 285، يونيه 2007.

2- أحمد، د. مرشد: *" البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله"*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى .

3- بحراوي، حسن : *"بنية الشكل الروائي، (الفضاء – الزمن – الشخصية)"*،المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.

4- حسين ، خالد حسين : *" شعرية المكان في الرواية العربية – الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً "* – كتاب الرياض ، العدد 83 ، أكتوبر 2000م .

5- الشامي، د. حسان : *"المرأة في الرواية الفلسطينية (1965- 1985)"*– دراسة – اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998.

6- عبيد، د. محمد صابر– د. سوسن البياتي : *"جماليات التشكيل الروائي"،(دراسة في الملحمة الروائية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان)*، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، الطبعة الأولى، 2008 ، ص240.

7- عليان، د. حسن : *" الرواية العربية من الاحتلال إلى المقاومة (في فلسطين)"*، مجلة جامعة دمشق، المجلد 22، العدد (1+2) ، 2006 .

8- ماضي، د. شكري عزيز : *"الرواية والانتفاضة نحو أفق أدبي ونقدي جديد"*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى ، 2005.

9- المسعودي، كريم مهدي : *"الواقع الفلسطيني في الرواية " – دراسة نقدية في أدب غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا*، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ، 2006.

10- نجمي، د. حسن : *"شعرية الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي"*، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000م .

11- وادي ، فاروق : *" ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية – غسان كنفاني، إميل حبيبي ، جبرا إبراهيم جبرا"*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دائرة الإعلام والثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، الطبعة الأولى، 1981.